(١٠)

الإسلام وحركة الأرض

إن المسلم الذى هداه الله إلى الإسلام إذا أراد أن يزداد إيمانه، وتتوثق بالله وخالقه صلته، لابد وأن يتعلم ما لم يعلم، وأن ينظر فى ملكوت السموات والأرض ليرى أكثر مما يراه ببصره وعينيه عندئذ تتضح له الرؤيا، ويرى النور فى كل شئ يراه فى نفسه، يراه فى كل حاسة من حواسه وفى كل عضو من أعضائه بل وفى كل خلية من خلايا جسمه. ولم لا والقرآن الكريم يرسم للمؤمن هذا الطريق فيدعوه الى التعلم ويحضه على المعرفة والبحث. ألم يقل سبحانه وتعالى:

وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

وألم يقل أيضا

وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

ولم نذهب بعيدا ألم يكن أول ما أنزل على سيد البشر صلوات الله عليه:

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ (العلق ١ ـ ٥)

ويكرم الله العلم تكريما بتكريمه بالقلم وهل هناك أكثر تكريما من أن يقسم به سبحانه وتعالى وأنه لقسم لو تعلمون عظيم فيقول:

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾

يعد سبحانه وتعالى الإنسان الذى خلقه وكرمه بأنه سيكشف له عن آيات كثيرة وأسرار هامة فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه سبحانه وتعالى الحق فيقـــول:

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ (فصلت ٥٣)

وفى هذه الآية دعوة صريحة للبحث والتعلم. حتى إذا سلك الإنسان هذا السبيل رأى من آيات ربه الكبرى الكثير وعرف من أسرار كونه الكثير عندئذ يؤمن عن عقيدة واقتناع، هذا إذا أراد أن يرى الحقيقة دون أن يعرض عنها، ولا يكون كمن يقول عنهم القرآن الكريم:

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾

(يوسف ١٠٥)

وإذا كانت هذه كلها ترغيبات للإنسان فى العلم إلا أنها فى نفس الوقت دعوة للمسلم أن يتعلم، وأن يزداد علما فيسمو بعلمه ويقوى بعلمه ويسعد بعلمه وها هو حاضرنا الذى نعيش فيه يقول أن الغلبة للعلم والنصر للعلم والقوة فى العلم. إلا أن القرآن الكريم يضيف إلى ذلك أن العلم وحده هو الطريق الوحيد لمعرفة الله سبحانه وتعالى، وأن الذى يعلم هو أول من يعلم أن الله حق وهو أول من يؤمن بوحدانيته وقدسيته استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

(النساء ١٦٢)

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ

(آل عمران ١٨)

بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ (العنكبوت ٤٩)

وغير ذلك من الآيات كثير وكثير. ثم تعالوا نتحدث عن موضوع الساعة وعما يشغل بال الإنسان فى هذه الأيام ألا وهى رحلة الإنسان إلى القمر وهبوطه على سطحه وهل يساعد ذلك على تثبيت إيمان المؤمن أو هو على العكس يدعو إلى زعزعة إيمانه.

دار الإنسان بسفينة الفضاء حول الأرض، ثم سافر من الأرض إلى القمر، ودار حوله وما فى ذلك شك، ثم هبط على سطح القمر وخطا خطواته الأولى على سطحه وجمع عينات من أرضه وتربته. هكذا طالعتنا الأخبار وهكذا رأينا على شاشة التليفزيون ورأينا رأى العين كيف كانت مركبة الفضاء تهبط وكيف هبط منها الرائد على سطح القمر.

وأن ما يعنينا فى هذا المجال أن نقول لرواد الفضاء أن ما يرونه ما هو إلا جزء لا يقدر ولا يذكر من ذلك الملكوت الأكبر. وأن المؤمن الحق يستطيع أن يقول أنه رأى الله حقاً، رآه فى تلك الأرض الراسخة السابحة فى ذلك الفضاء. رآه فى ذلك القمر وفى تلك النجوم التى تسير وتسبح فى ذلك الفضاء الذى لا نهاية له ولا بداية، تسير فى أفلاك مرسومة محدودة لا تحيد ولا تخرج عن مدارها، وفى مواعيد لا تتقدم عنها ولا تتأخر، رآه فى تلك السماء التى رفعت من غير عمد نراها، ولكن من لم يرى شيئا من ذلك فلن يراه إن إبراهيم عليه السلام وقد وهبه الله نعمة البصر والبصيرة.

عرف ربه وهو على سطح الأرض دون أن يسبح فى فضائه أو أن يرتفع عن أرضه. عرف ربه سبحانه وتعالى عندما نظر إلى الكواكب فأعرض عنها، ونظر الى القمر فلم

يجد فيه ما يرجو ونظر إلى الشمس فوجد أنها لا تسمو، ولا ترتفع إلى المستوى الذى ينبغى أن يكون عليه ربه وخالقه. استمعوا للقرآن الكريم وهو يصف ذلك وصفا جميلا:

وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

(الأنعام ٧٥، ٧٩)

ويحدثنا القرآن الكريم مرة أخرى عن موسى عليه السلام عندما جاء لميقات ربه وقال رب أرنى انظر إليك، فاستمعوا لما يحدثنا به القرآن الكريم:

وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ۚ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

(الأعراف ١٤٣)

ويظهر إعجاز القرآن الكريم عندما نتابع الأطوار التى مر بها العلم والعلماء عن دوران الأرض وحركة الكواكب من عهد بطليموس وأرسطو طاليس حتى وقتنا هذا. كان بطليموس وأرسطو طاليس يعتقدان بأن الأرض ثابتة لا تتحرك، واستمر رأيهما هذا سائدا حتى عام ١٤٥٠ ميلادية، عندما جاء جون مولر تلميذ (برباخ) أستاذ الفلك فى جامعة فيينا وقد كان أول عالم من العلماء يرتاب فى صحة النظرية البطليموسية.

ولكنه لم يستطع أن يجاهر برأيه هذا فيحطم نظرية كانت مستولية على الأذهان تماما فى ذلك الوقت ثم يجئ كوبرنيكوس، وكان كاهنا وقد استطاع أن يدرك الحركة النسبية للأجسام ضاربا بذلك براكب فى سفينة تسير بحذاء الشاطئ فإنه يرى الأرض متحركة والسفينة ثابتة. وكذلك الحال فى الأجرام السماوية، فإننا نراها متحركة ونحن كأننا على سطح ثابت. وبذلك استطاع الوصول إلى تلك النتيجة المعروفة وهى أن الأرض متحركة لا ثابتة. وقد استطاع كوبرنيكس أن يجاهر برأيه هذا بالرغم من أنه كان من رجال الكنيسة، وبالرغم من سطوة البابا بولس الثالث. ولكن حتى هذا الرأى يقول بأن النجوم ثابتة لا تتحرك يختلف تماما عما نعرفه الآن من أن الكل فى حركة دائمة ويحدثنا القرآن الكريم فيقول:

وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

حتى إذا كان عام ١٥٧١ ميلادية يأتى كيلر ويثبت أن جميع السيارات تدور حول الشمس كل فى مدار خاص به.

ثم يجئ غاليليو (١٥٦٤ـ١٦٤٢) وبفضل اختراع المرقب استطاع أن يرى ما لا تراه العين المجردة فرأى النجوم الكثيرة ورأى فى القمر جبالا وظلالا. وكشف أربعة أجسام صغيرة تدور حول المشترى واستطاع أن يثبت أن للزهرة أوجها كأوجه القمر.

ويأتى نيوتن بعد ذلك (١٦٤٢ـ١٧٢٧) ويثبت أن السيارات وأقمارها تدور كلها حول الشمس مرتبطة بقانون الجاذبية.

ثم يجئ هرقل (١٧٣٨ـ١٨٢٢) ويثبت أن جميع النجوم التى كان يظن أنها ثوابت هى فى الحقيقة متحركة ولكنها بعيدة جدا حتى إننا لا نستطيع أن نحسب أفلاكها.

ويقول العلماء أن فى السماء أنظمة عديدة تشبه الشمس وسياراتها تتحرك لها وفقا

لنظام دقيق وعجيب. وما شمسنا وقمرنا إلا مجموعة من مجموعات كثيرة مماثلة يزخر بها هذا الكون.

وهكذا تحدث التاريخ عن حركة الأرض والنجوم، وأن هذه الحركة لم يثبتها العلم إلا ابتداء من عام ١٤٥٠ ميلادية بينما القرآن الكريم ـ وهنا يظهر إعجازه ـ يحدثنا عن ذلك قبل ذلك التاريخ بمئات السنين أخبارا لا تقبل الشك، وفى وقت كانت العقيدة المسيحية تقول أن الأرض ثابتة لا تتحرك، ولكن القرآن الكريم يقولها صريحة واضحة:

وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ (يس ٣٨ـ٤٠)

ويقول سبحانه وتعالى فى آية أخرى:

وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ

(النمل ٨٨)

ويقول سبحانه وتعالى:

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾

وهكذا يحدثنا القرآن الكريم منذ القدم حديثا لا يتطرق الشك اليه يثبته العلم ويراه الإنسان برحلاته فى الفضاء رأى العين ما يدعونا إلى أن نعرف ونؤمن أنه تنزيل من لدن حكيم عليم. ولا هو بقول كاهن ولا بعلمه بشر، ولكنه قرآن كريم ممن خلق الأرض والسموات العلى وما بينهما وما تحت الثرى.

ثم نعود مرة أخرى إلى من كان يظن أنه سيرى الله وهو يدور حول الأرض،

وكأنما قد وصل إلى نهاية الكون والذى من المحال أن يص الى نهايته حتى ذلك الذى هبط على سطح القمر فلا يذهبن به أو بنا الظن أنه يصل إلى نهاية الكون أو أنه قد نفذ من أقطار السموات والأرض والله سبحانه وتعالى يقول:

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ (الرحمن ٣٣)

ويقول بعض المفسرين أن هذا السلطان هو العلم، ولكن مظاهر الآية يقول أنكم لن تنفذوا يا معشر الإنس والجنس مهما تقدم بكم العلم، وهذا تحد مستمر وسيستمر ما دامت السموات والأرض. وفى سورة أخرى يحدثنا القرآن الكريم عن هذا الكون وأنه أوسع وأرحب مما نظن فدنيانا كلها بشمسها وقمرها وأرضها ونجومها جزء صغير من ذلك الملكوت العظيم، وأن الذى يستمع إلى مثل قوله سبحانه وتعالى فى سورة المعارج:

تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ (المعارج ٤)

وهكذا تتحدث الآية وسرعة الملائكة والروح لا تتقيد بالأرقام التى تعرفها ولا تستطيع أن تجاريها تلك السرعات العظيمة التى وصل العلم إليها. ولكنه سبحانه وتعالى يخاطب البشر على قدر عقولهم المحدودة القدرة فيقول:

فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾

ثم يدعونا الحديث عن القمر والنجوم إلى ما يحتمل أن يوجد بها من مخلوقات وهل هناك كائنات حية أم لا والقرآن الكريم صريح فى ذلك وواضح استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ (الشورى ٢٩)

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ (النحل ٤٩ـ٥٠)

وإننا للآن لم نستطيع أن نثبت وجود حياة على أى من الكواكب إلا أن ذلك ليس ببعيد. فنحن لم نكتشف الكون كله، وما زلنا فى بداية الطريق والطريق طويل وشاق وطريق العلم لا نهاية له. وهكذا يسبق القرآن الكريم فيما يقول فيضع لنا القضايا العلمية المختلفة ويعطى فيها حكمه الذى لا يقبل الشك ثم يقول للإنسان:

قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ (العنكبوت ٢٠)

ويقول أيضا:

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ

ويقول سبحانه وتعالى فى سورة الحج:

أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾

(الحج ٤٦ـ٤٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾

(سورة يونس)

obeikandl.com